فكاهات

رواية

الكفّارة (١)

كان في سنة ١٨٤٨ في المانيا رجلٌ عظيم الشأن يُدعى الكُنت منسفلد يقطن قصراً عظيماً فاخراً تحيط بهِ اراضٍ خصيبة على بعد بضعة اميال حول القصر وكلها من الاملاك التابعة لهُ . فلما كان في احد الايام جلس الكنت على كرسيّهِ وامامهُ فتًى مرتدٍ بثياب الجندية طويل القامة حسن الهيئة هو ولدهُ الوحيد فجرى بينهما الحديث الآتي . قال الكنت لا بد يا ولدي كارل من أن اطلعك على امور لا يصح كتمانها بعد فاعلم يا ولدي ان الكُنتة ارنستين نسيبةٌ لمليكنا الامبراطور فردريك وليم وقد خصصها الامبراطور بملايين من الدنانير ولكنهُ اشترط عليها ان لا تتسلّم سوى ريع المال الى ان تتزوج ويجب ان يكون زواجها بفتًى من الاشراف ذي غنًى واملاك وافرة وانت تعلم ان الخسائر الفادحة والمصائب التي ألمّت بنا في الماضي قد حنتني تحت أثقال الدين واصبحت جميع املاكنا رهناً في قبضة يد المحامي مكلسن . والآن وقد أمست شمس حياتي على وشك الغروب فانا اودّ ان أراك قبل موتي مالكاً شرعياً لاملاك منسفلد وزوجاً للكنتة ارنستين فعليك اذاً

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

يتوقف فكاك القصر والاملاك وامامك مجالٌ للفوز فكن رجلاً ودع شيبتي تنحدر الى الهاوية بسرور. فقال كارل ولكن من أين لي يا أبي ان احصّل مبلغاً عظيماً كالمبلغ اللازم لتخليص القصر والاملاك . قال قد لاحظت ولا بدّ يا ولدي ان الامبراطور يميل اليك جدًّا وقد قرّبك كثيراً من شخصهِ ورقّاك سريعاً وربما عهد اليك قريباً في مهمات اذا قضيتها على حسب مرادهِ تنال فوق ما يلزمنا . قال ولكن ما عسى أن تكون المهمات التي سيندبني اليها . قال أنت عالم بالحرب القائمة الآن بين الدولة العثمانية وروسيا وقد تحالفت انكلترا وفرنسا على مساعدة الاتراك وقام بعض رجالنا يطلبون من الامبراطور ان يمالئ المملكتين المتحالفتين على كبح جماح الروس ولكنهُ لارتباطات سرية بينهُ وبين القيصر لم يجب وقد اسخط رفضهُ بعض كبرآء اعوانهِ فتخلوا عن وظائفهم وبلغ الامبراطور من عهد قريب ان بعضهم ينوي اثارة فتنة بين الجنود واضطرارهُ الى الدخول في الحرب فاقلقهُ هذا الامر واظن انهُ سيفوض اليك السعي في تدارك هذا الخطر. فاذا خدمك التوفيق وتمكنت من معرفة احد القائمين بهذه الثورة نلت ولا شك رضى الامبراطور والاموال الطائلة فنفي ما علينا ونسترجع هذا القصر واملاكهُ ثم تقترن بالكنتة ارنستين وتصبح اغنى واعظم رجل في المملكة الالمانية . وقد ذكرتَ لي انك مأمورٌ بمقابلة الامبراطور في هذا المسآء فاذهب يا ولدي وكن رجلاً وليوفق الله مسعاك

وكانت الشمس قد قاربت المغيب فخرج كارل من حضرة والدهِ وكان حصانهُ امام باب القصر فامتطاهُ وسار تتجاذبهُ افكارٌ شتى وجعل يكلم نفسهُ

فقال أجَل ان من اوجب الامور ان اسعى جهدي في ارضآء مليكنا لعلّي افوز منهُ بمكافأةٍ اتمكن بها من فكاك القصر والاملاك من يد مكلسن . اما الكنتة ارنستين فلا انكر هيامها بي واني بمالها ساكون اغنى انسان في المانيا ولكني قد عاهدت صوفيا ابنهيم على الحبّ فكيف انكث عهدي . وما زال كارل يردد هذه الافكار حتى بلغ حديقة في وسطها قصر بديع البنآء فترجل عن جوادهِ وسلمهُ الى خادمٍ هناك ثم دخل الحديقة وجلس على كرسيّ من الحجارة . وكان القصر المذكور للكولونيل ابنهيم والد صوفيا المذكورة وكان ابنهيم من رجال البلاط الامبراطوري ومن دهاة القواد محبوباً عند الجيش والامة عموماً وكان فيهِ بعض الاستبداد على الامبراطور فنوى الامبراطور تنكيسهُ ولما طلبت رجال الالمان معاونة الاتراك على الروسية كان ابنهيم أول القائمين بذلك فانكر الامبراطور طلبهم وأهان ابنهيم فلم يحتمل تلك الاهانة واستقال من منصبهِ وجآء فاعتزل في قصرهِ . وحدث ان اجتمع كارل مرةً بالفتاة فاحبها وأحبتهُ واقسما على الوداد سرًّا فكان يوافيها الى الحديقة ويجددان احاديث الحب على غفلةٍ من الرقيب . وما جلس كارل كما ذكرنا بضع دقائق حتى اقبلت صوفيا فنهض للقآئها وسارا كلاهما يتمشيان بين اشجار الحديقة ورياحينها فقالت صوفيا اني لم اكتم عن والدي شيئاً في حياتي سوى امر اجتماعي بك يا كارل أفلا توافقني ان اطلعهُ على ذلك . قال اياكِ ان تفعلي الآن فان العداوة الموجودة بين والدكِ وأبي بسبب اختلاف آرآئهما فيما يتعلق بالحرب الحاضرة لا يسهّل قبول والدكِ بي فالاصلح ابقآء ذلك الى ان نرى ما الذي سيكون . قالت ولكني اخاف ان تنقلب الى

غيري ويعلم والدي بذلك بعد اوانهِ فلا انجو من توبيخهِ . قال لا يخطر في بالكِ هذا الامر فان الكنتة ارنستين وجميع مقتنياتها رهن اشارتي لو شئت ولكنني لست بفاعلٍ وقد وهبتكِ قلبي فانتِ مالكتهُ . وما زالا على مثل هذا الحديث الى ان دنت الساعة التي عينها الامبراطور لمواجهة كارل فودّع حبيبتهُ ثم امتطى جوادهُ وسار ينهب الارض الى البلاط الامبراطوري

ولما دخل الى حضرة الامبراطور حيّا باحترام ووقف فبش الامبراطور لهُ وقال ايها الڤيكنت ان امامك من نعمي شيئاً كثيراً ان احسنت اغتنامهُ . قال كارل ما على مولاي سوى الامر وما عليَّ سوى الطاعة ولو بسفك دمي . قال الامبراطور بلغني أن جماعةً ممن خدموا الجندية يتآمرون عليَّ وقد حفظت الامر سرًّا عن كل احد سواك وانا مفوّضٌ اليك البحث عن هذه الافاعي لقطع رؤوسها فاذا فزت غمرتك بالهبات الجمة وزدتك يد نسيبتي الكنتة ارنستين فاذهب وأرني افعالك . فحنى كارل رأسهُ وخرج فتوجه توًّا الى والدهِ وكان بانتظارهِ فقص عليهِ ما جرى بينهُ وبين الامبراطور فنشطهُ والدهُ وحثَّهُ على صدق السعي رجآء الحصول على مكافأةٍ تقوم بفكاك القصر والاملاك . وجعل كارل يتنسم الاخبار اياماً وكلما أعياهُ البحث قصد حبيبتهُ صوفيا فسرَّى عندها من همومهِ شيئاً . وفي ذات يوم زارها حسب المعتاد وبينما هما يتمشيان في الحديقة سمع كارل جرس الباب يُقرَع تباعاً فسأل صوفيا ما عسى ان يكون ذلك قالت ان بعض اصحاب أبي يأتونهُ يوماً بعد يوم ولعلمي انهُ يُشغَل بهم كثيراً اتيقن انهُ لا يبغتنا في خلوتنا . قال كارل ولكن من هم هؤلآء الاصدقآء . قالت لا اعرف احداً منهم وانما يترآءى لي

انهم من رصفآئهِ في الجندية . قال يجب ان اعرفهم مخافة أن يكون بينهم من يعرفني ويراني هنا فيخبر والدي ويفتضح امرنا . قالت اني امكنك من ذلك اذا شئت فللغرفة بابٌ زجاجيٌّ مسدول عليهِ ستار اخفيك ورآءهُ فترى الجميع . قال هلمَّ بنا وسار يتبع الفتاة وهي تقودهُ مدفوعةً بالحب غير عالمةٍ بما سيجرُّ عليها المستقبل من الويل والندم . ولما بلغ كارل الباب الزجاجي اختفى ورآءهُ فرأى الكولونيل ابنهيم والد صوفيا الى راس مائدة وحولها اصدقآؤهُ فتبينهم كارل وعرف العدد الاكبر منهم . ثم اصغى فسمع ابنهيم يقول نعم بلغني ان الڤيكنت منسفلد يكره اعمال الامبراطور وانهُ غير ملتصقٍ بهِ الا لاغراضٍ لهُ وكنت اود ان افاتحهُ بالامر علَّهُ ينضم الينا ولكن اخشى ان يكون ما بلغني غير صحيح فنقع في شر عملنا . فاجابهُ آخر ما لنا ولهذا الغلام الا تدري ان من يتوكأ على قصبةٍ لا يأمن نشوبها في يدهِ . وكانت صوفيا قد استبطأت كارل وخشيت ان يُعرف امرهُ فنادتهُ واخرجتهُ رغماً قبل ان يسمع تتمة الكلام ثم اوصلتهُ الى باب الحديقة فذهب ورجعت الى غرفتها ولكنها لم تلبث ان شعرت بتبكيت ضميرها على ما فعلت وتصورت لها امورٌ شتى فطلبت الراحة بالرقاد ولكنها لم تنم الا نوماً مزعجاً تخللتهُ احلامٌ مخيفة . اما كارل فتوجه الى بيتهِ وهو ثملٌ بما اكتشفهُ وايقن بالحصول على نعم الامبراطور ولكنهُ كان يخشى ان يحدث ما يسوء حبيبتهُ وبعد مقابلة والدهِ وطَّن النفس على اتمام ما نواهُ وتوجه الى القصر الامبراطوري وكان الامبراطور قلقاً مشتت الافكار فلما دخل عليهِ كارل اقبل عليهِ بوجههِ وقال ما ورآءك . قال خيرٌ يا مولاي فاني قد وقفت على الامر كلهِ وعرفت زعيم الثورة واعوانهُ

فحظت عينا الملك وقال قل لي مَن ومَن . قال اما الزعيم فهو الكولونيل ابنهيم ومعهُ ... واراد ان يتم كلامهُ فقال الامبراطور حسبك قد عرفت الافمى ولا اجهل اولادها فاياك ان يعلم احدٌ بذلك الى ان تصدر اوامري . اما انت ايها الڤيكنت فكن من الآن جنرالاً في حرسي الخاص وخذ هذا جزآء امانتك ثم دفع اليهِ اوراقاً فتناولها كارل وانحنى على يد الامبراطور فقبلها وخرج . وشعر حين لفظ اسم والد حبيبتهِ ان خنجراً قد اخترق فؤادهُ وأضاع رشدهُ فسار على غير هدًى الى ان بلغ القصر ودخل الى غرفة والدهِ وكان بانتظارهِ فقص عليهِ الامر والقى اليهِ بالاوراق فنظر فيها الاب فاذا هي تزيد عما يلزمهُ لفكاك القصر والاملاك فبرقت اسرتهُ وصاح ضاحكاً الحمد لله . ثم ذهب كارل الى سريرهِ فاقلقتهُ افكارهُ وتمثل نفسهُ بهيئة خائن دنيء فلم يقرّ لهُ قرار

اما الكولونيل ابنهيم فذهب بعد خروج اصحابهِ الى مكتبهِ واحيا الليل بالكتابة وفي الصباح انطلق الى ادارة البريد بنفسهِ والقى رسائلهُ فيها . ولما عاد الى البيت مرَّ امام غرفة ابنتهِ فرآها لا تزال بثياب الامس وهيئتها تدل على انها لم تذق نوماً فقلق لذلك وسألها عن السبب فانطرحت على اقدامهِ وقالت عفواً يا والدي فاني قد فعلت اموراً خفيةً عنك ولم ينبهني اليها ضميري الاّ مسآء امس وخشيت ان ينتج منها ضررٌ فطار نومي ولو لم اخف من ازعاجك لكنت ذهبت اليك في منتصف الليل واطلعتك على امري فهل تعفو عني يا ابي . قال انهضي ياحياة والدكِ وسلوتهُ ألم تدري انهُ لولا وجودكِ لما رغبت في الحياة فسكّني روعكِ واخبريني ما يزعجكِ . فجعلت صوفيا

تقص عليهِ بدموع الخوف ما كان من الاجتماعات السرية بينها وبين كارل وما فعلت اخيراً فعبس الكولونيل وقدحت عيناهُ شراراً ثم سكّن جأشهُ وقال اني لا احزن على نفسي يا ولدي بل احزن لاجل ما سيحل بكِ وباصحابي . والآن فلم يبقَ الا ان نبادر وقوع المحذور فاسمعي ما اقول . انني الآن عائدٌ من ادارة البريد حيث القيت رسائل الى جميع اصحابي اوضحت لهم فيها ما قررناهُ امس ولا شك ان كارل الخائن سيخبر بما رأى وربما صدرت الاوامر بالقبض على هذه الرسائل فيقع اصحابي في الشر العظيم وعليهِ . فانا راجعٌ لأستردَّ الرسائل المذكورة ولكن ربما أُلقي عليَّ القبض فخذي هذا المسدس ومعي مثلهُ فاصعدي الى سطح القصر وراقبيني فاذا رأيتِ الشُرَط قادمين الى القصر فاطلقي المسدَّس علامةً لي كي لا ارجع بل اذهب وانتظركِ في كرُنستاد واذا أُلقي عليَّ القبض اطلق لك مسدسي فتعلمين بالامر فاتركي القصر واذهبي الى كرنستاد وانتظري اشعاراً مني واجتهدي ان تذهبي الى اصدقآئنا وتعلميهم بما جرى ليكونوا على بصيرة . ثم ودع الاب ابنتهُ وهي تقبلهُ بدموع الحزن والاسف وسار توًّا الى محل البريد وقال للمأمور انني منذ ساعة احضرت رسائل الى اصدقآئي أدعوهم لوليمة ولكن عرض لي ما ألزمني ان اغير الوقت المعيَّن فهل لك ان تعيد اليَّ الرسائل لاصلحها . فقال المأمور انك منذ وضعت الرسائل في صندوق البريد لم تعد ملكاً لك ولا يمكن ارجاعها . وللحال شعر ابنهيم بيدين من حديد قد امسكتاهُ ورأى نفسهُ مقيداً بين شرطيين وكان ذلك ما يتوقعهُ فاطلق مسدسهُ في الهوآء وسار معهم صامتاً وسمعت صوفيا صوت المسدس فصاحت بتلهف واسرعت

لاتمام أوامر والدها

وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ذهب الكنت منسفلد وولدهُ كارل الى المحامي مكلسن ومعهما الاوراق التي وهبها الامبراطور لكارل فدخلا عليهِ وطلبا منهُ الصكوك ليفيا الدين فاخرج لهما الاوراق ونقداهُ قيمتها واذ ذاك دخل خادم المحامي يقول ان بالباب سيدةً تطلب مواجهتهُ وقبل أن يتمّ كلامهُ دخلت صوفيا ابنهيم ولما وقع نظرها على كارل صاحت بهِ ويلٌ لك أيها الخائن والقاتل ثم نظرت الى مكلسن وقالت لهُ قد اطّلع هذا الخائن على اعمالكم وبلغها الى الامبراطور وألقي القبض على والدي وسيُقبَض عليكم ايضاً فاسرع وانجُ بنفسك وبلّغ اصحابك . وكانت في أثنآء كلامها قد وجهت مسدسها الى كارل وابيهِ وقالت ايا كما ان تتحركا من مكانكما فان ابنة ابنهيم في يأس ويدها لاتخطئ المرمى فوقف كلاهما مبهوتين وأدرك مكلسن الامر بلحظةٍ واحدة فاعاد صكوكهُ الى صندوقهِ الحديدي ودفع بالقراطيس المالية الى وجه كارل قائلاً الآن علمت انك اشتريت بهذه الخيانة قصرك واملاكك فسآء فألك اني لا اقبل مال الخيانة وسينُزَع القصر من يدك اليوم ايها الخائن . ثم خرج من الغرفة وبقيت صوفيا ساحرة الاثنين بمسدسها الى ان فُتح الباب ودخل ابن المحامي فقال لصوفيا لقد نجا أبي واصحابهُ وكلهم الآن على طريق كرنستاد مدينة الامان فشكراً لكِ وازيدكِ بشارةً اخرى ان والدكِ ايضاً قد تخلص من الشرطة ونجا . ثم نظر الى كارل ووالدهِ وقال لهما اما انتما فاتبعاني الى قصر منسفلد لتسلماني اياهُ بموجب هذا الامر . فأنَّ الكنت حزناً وهطلت دموع كارل ندامةً وصاحت

صوفيا فرحاً وخرجت من الموضع

. . . . . .

استولى ابن مكلسن على املاك منسفلد واصبح الكنت طريداً فقيراً ورأى الامبراطور انهُ لم يُقبَض على أحد من رجال الثورة فظن ان كارل قد مكر بهِ وانفذ اليهم بلاغاً فسخط عليهِ وترقب معاقبتهُ وكان ضمير كارل يؤنبهُ وافكارهُ تعذبهُ فاخذ والدهُ وتوجه الى كرنستاد ايضاً وكانت حينئذٍ ملجأً من ظلم فردريك وليم وأقام هناك في نزلٍ مع والدهِ . وتكاثرت الاحزان بعد ذلك على الوالد الشيخ فمرض مرضاً ثقيلاً ويئس الاطبآء من شفآئهِ وكان كارل مع مقتهِ لهُ لما اوقعهُ فيهِ من المصائب لا يفارق سريرهُ ويعاملهُ كما تعامل الام ولدها . وكان مدة مرض الكنت تصل الى غرفتهِ في كل يوم باقةٌ من الازهار وشيءٌ من الفواكه التي يحبها المريض فلم يبالِ كارل اولاً بمن يرسل هذه الهدايا لاهتمامهِ بمرض والدهِ وبعد ما توفي سأل بعض الخدم عمن كان يحضر لهُ الازهار والفاكهة فقال سيدة في النزل المجاور لنا . فلم يشكّ كارل في انها صوفيا قد عاد الى قلبها الحب الاول وصفحت عنهُ فسار الى النزل ليشكرها ويستغفرها عما مضى ولما دخل الى غرفة السيدة وجدها الكنتة ارنستين فوجم عن الكلام وظهرت عليهِ علامات القلق والارتباك ورأت الكنتة ذلك فتبسمت وقالت لا تخف يا كارل فلك عندي ما يسرّك . قد اطّلعت مؤخراً على تفصيل تاريخ حياتك وأود من كل قلبي انك تقترن بصوفيا لو لم تكن قد خنتها وكنت العامل على قتل والدها وآلمها . ولكن لم يفت اصلاح ما مضى فاتني قد تداخلت في امرك عند

الامبراطور فصفح عنك ووثق بامانتك لهُ ورجعت منزلتك عندهُ كما كانت وزيادةً على ذلك فقد حصَّلت منهُ هذا الامر الامبراطوري الذي يصفح فيهِ عن ابنهيم واصحابهِ ويسمح لهم بالرجوع الى برلين فخذ هذا الامر واذهب الى حبيتك صوفيا ومتى رأت انك حامل اليها امراً بالعفو عن والدها تحققت محبتك لها وعادت الى ما كانت عليهِ فخذها امرأةً لك واجتهد ان تنسيها في ايامها الآتية ما قاستهُ في الماضية . فلم يدرِ كارل كيف يشكر الكنتة على رقة عواطفها فاخذ الامر وقبل يدها وخرج ثم بحث عن محل وجود ابنهيم وطلب مواجهة صوفيا فجثا أمامها واجتهد في طلب رضاها فكانت تكلمهُ بكل اعراض وأظهرت لهُ انها وان صفحت عنهُ فلن تنسى خيانتهُ . فدفع اليها الامر الامبراطوري وقال أستودعكِ الله اذن يا صوفيا فانهُ لم يعد لي اقامة في المانيا وقد فقدت فيها كل عزيز لديَّ وأنا ذاهبٌ الى حيث تدور رحى الحرب فاما أن أموت منسياً أو اكسب لنفسي اسماً يغطي على سيئاتي وخرج من عندها حزيناً . وبعد ذلك أطلعت صوفيا والدها على ما جرى وناولتهُ الامر بالعفو عنهم فاطلع اصحابهُ عليهِ فرجع بعضهم الى برلين أما ابنهيم وبقية أصحابهِ فتوجهوا للانضمام الى الجيش المحارب ضد الروسية واخذ ابنهيم ابنتهُ معهُ . ولما بلغوا موقع القتال تولى ابنهيم قيادة فرقة في الجيش العثماني فكان يهجم برجالهِ الى أشد مواقع الحرب خطراً ويحمل على الروس حملاتٍ تدك الجبال حتى طار صيتهُ وارتعد الجميع لدى ذكر اسمهِ . وفي ذات يوم بينما كان القتال ملتحماً سقط ابنهيم عن جوادهِ ثم سقطت بجانبهِ قنبلة من مدافع الاعداء وقبل أن تنفجر أسرع ضابطٌ كان بالقرب منهُ فحمل

القنبلة بيديهِ وأسرع حتى ابتعد بها عن ابنهيم والقاها الى الارض فانفجرت وأضرّت بالضابط كثيراً اذ بقرت بطنهُ وكسرت يديهِ واقبلت رجال ابنهيم فانتشلت قائدها وحملوا الضابط المسكين في عربة نقل . ولما انتهت الموقعة امر ابنهيم أن يُنقل الضابط الى خيمته ليعتني بهِ بنفسهِ ولما وصلوا بهِ الى الخيمة أمر ابنهيم ابنتهُ أن توجه معظم عنايتها الى ذلك الجريح الذي خلصهُ من الموت فلبّت للحال ولكنها ما وقع نظرها على وجه الجريح حتى صاحت بدهشة ان هذا كارل منسفلد يا أبي

وكان في هيئة كارل ما يترجم بافصح بيان عما دفعهُ الى فعل ما تقدم وقرأ في عيني صوفيا ووالدها انهما فهما ضميرهُ وانهما صفحا عنهُ صفحاً باتّاً بل نسيا عند رؤيتهِ في تلك الحالة كل ما جرى في الماضي فجمع قواهُ وقال والآن هل تصفحين عني يا صوفيا وهل تحققتِ انني كنت مدفوعاً الى ما فعلت واني ندمت على ما صدر مني الى الموت . قالت لا تذكر الماضي فاني قد نسيتهُ واني لا امنية لي الاّ ان تُشفى حتى اكون لك . قال هيهات ولكن كفاني انني كفّرت عن ذنبي فسأموت سعيداً ثم شهق ففاضت روحه

فحزن ابنهيم وابنتهُ على كارل ودفناهُ بما لاق لهُ من الاكرام ولما هدأ ثائر الحرب نقلا عظامهُ الى المانيا حيث ضُمّت الى ضريح أسرتهِ ولبثت صوفيا بقية حياتها عذراء لتسلية والدها وندب الفتى الذي لم تنكر حقيقة كفارتهِ